

الأمازيغ في مصر بين متلازمتي الانفتاح وتلاشي الخصوصية

مصريون يقبلون على واحة سيوة لاكتشاف عادات وتقاليدها لا يعرفونها

على بعد مئات الكيلومترات من قلب العاصمة المصرية القاهرة، يعيش نحو 55 ألف أمازيغي حياة الغيتو، يتمسكون بعادات وتقاليدها خاصة قبل أن تقلب التغيرات المجتمعية المتسارعة في بوصلة السياحة حياتهم، وتزيد روابطهم بسكان العاصمة ومحافظات أخرى، وتصبح إشكالياتهم الرئيسية كيف يندمجون دون أن يذوبوا أو يتلاشوا.



رحاب عليوة
كاتبة مصرية

سيوة (مصر) - عادة ما تُفاجئ حقيقة وجود أمازيغ في مصر من تطا قدماء واحة سيوة في الصحراء الغربية، على بعد نحو 50 كيلومترا من الحدود الليبية للبرية الأولى، ذلك لأن هذا التواجد غير ذائع الصيت ومحدود التأثير بفعل انزواهم على بعد مئات الكيلومترات عن القاهرة وتجنبهم إثارة أزمات عرقية. يحدث بمجرد أن يبدأ أمازيغيان في التحدث إلى بعضهما بلغة غريبة غير مفهومة، أن يطرح السؤال عن ماهية تلك اللغة، ويبدأ الأمازيغي في ممارسة هواية دققناها فيهم وهي الشرح بزهو، اللغة هي الأمازيغية.

يجيب الدليل السيوي جمال الريان على وقد سيأحيى جاء من القاهرة لقضاء عدة أيام في الواحة، لكن الإجابة لا تبدو شافية للمسافرين ممن ينتظرون الاستدلال على عرفهم للواحة من عناء طريق طويل غير مههد استغرق أكثر من 10 ساعات.

يبادر بتعجب أحد المسافرين، وهو طبيب عظام (60 عاما): وهل ثمة أمازيغ في مصر؟ فيرد الريان: نعم في واحة سيوة فقط، وعدنا نحو 55 ألف نسمة حاليا. يستفسر آخر: تعني أنكم بدو؟ فينفي الريان: لا.. البدو عرب، ونحن لسنا عربا، نحن أمازيغ.

الأمازيغ هم عرق يقطن شمال أفريقيا وتتركز غالبيتهم في المغرب والجزائر وليبيا وتونس. ويمثل أمازيغ سيوة مزجا خاصا، فهم يعتزون بانتماثلهم لمصر ويتحدثون العربية بطلاقة، لكنهم يظلون قابضين على انتمائهم العرقي كالجمر.

يسري نظام التحكيم العرقي لدى الأمازيغ في مجلس يترأسه شيخ القبيلة ويشارك في عضويته 10 آخرون يمثلون وجهاء القبيلة وكبارها

وتضم واحة سيوة في صحراء مصر الغربية 12 قبيلة كلها من الأمازيغ عدا واحدة عربية تتركز بالقرب من ليبيا، وعدد أفرادها نحو 3 آلاف.

اعتاد الأمازيغ إبداء الترحاب اللازم للوافدين، حتى أن الأطفال يبادرون بالانتماء وإرسال السلام والقبل بمجرد أن تشر امامهم حافلة سياحية أو غرباء متجولون.

ولا يعكس هذا الانفتاح حقيقة المجتمع الأمازيغي في مصر، فهو مجتمع متماسك ومنغلق وله خصوصيات عدة، حتى وهو يشهد تغيرات منذ عدة أعوام صاحبت تزايد الوافدين واستقرار نحو 12 ألفا منهم في الواحة للاستثمار والعمل.

وتقف اللغة دون نوبان الأمازيغ في المجتمع بشكل كامل، فبيدا الطفل في تعلم اللغة الأمازيغية ويتقنها قبل العربية، ويرجى لقاؤه بالأخيرة حتى التحاقه بالمدرسة، وبسبب أن انتشار التعليم في الواحة كان محدودا من قبل، فثمة كهول لا يعرفون من العربية سوى القليل.

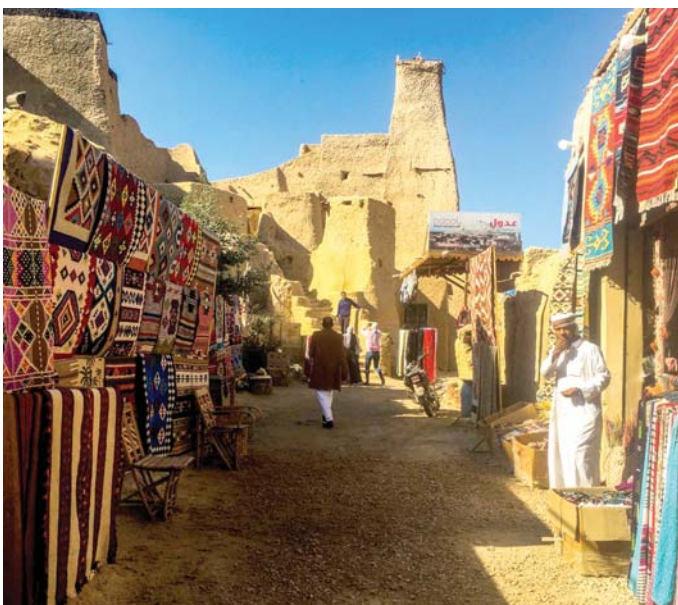
كما تترك اللغة الأمازيغية انطبعا لدى الغرباء بتماسك مجتمع الأمازيغ وصلابته على نحو يصعب اختراقه، وتعزز لديهم الشعور بالغربة عندما تثار عدا للمكاييد.

يجكي محمد (13 عاما) عن زميله عمرو الذي استقر مع والده في سيوة، قادما من سوهاج، وهي إحدى محافظات جنوب مصر، ولا يجيد الحديث باللغة الأمازيغية، فيحرص أقرانه في الفصل على التواصل بها عدا لإثارة غضبه واستدعاء ضحكاتهم.

ويساور كبار المشايخ في الواحة القلق على متانة



شامخون في سيوة



تتكلم لغات الزائرين ولا ننسى لغتنا

وتتسم بيوت الأمازيغ بالانخفاض الملحوظ، ربما يرتبط ذلك بقصر القامة وهي من سماتهم الجسمانية المتوارثة، حتى أن أقدم مبنى في الواحة، وهو قلعة "شالي"، مبني على نفس الهيئة المنخفضة.

وتختصر قلعة شالي واحة سيوة التراثية، تضم بقاياها مجموعة من الغرف، مؤرخة بالقرن الثاني عشر الميلادي، وتعني كلمة شالي الأمازيغية "وطني".

واحتضنت القلعة في الماضي كافة سكان الواحة مقسمين إلى شرفيين وغربيين بينهم معارك، حتى زالت وتم الصلح، وهي مناسبة يتم إحيائها كل عام، "عيد الصلح"، باشتراك الواحة كلها في وجبات الطعام في ساحة واسعة على مدار 3 أيام.

وتنتشر البازارات السياحية في محيط القلعة، وتعرض المنسوجات اليدوية التي تنسجها نساء الواحة وفتياتها، كما تعرض الملابس التراثية للفتاة البدوية، ومن ضمنها زي العرس. يكاد يندثر الزي التقليدي للفتاة الأمازيغية في عرسها، وهو جلباب مزركش بزئ نحو 5 كيلوغرامات أو أكثر، لصالح فستان الزفاف الأبيض، في تغير آخر بفعل انفتاح الواحة.

أما الاحتفالات في الزفاف أو غيره من الأعياد، فتدور في فلك ذبح الخراف وإعداد الطعام وجلسات السم والغناء على موسيقى أغاني أمازيغية خاصة.

ويشتهر الأمازيغ بماكولات مطهية بالبخار تسمى "المردم"، ويقوم الطاهي أو ربة المنزل بدفن الطعام بعد إكمامه في إناء، وإشعال الحطب وخشب النخيل في أشجار الزيتون، وبعد مدة معينة تنم إزالة الحطب والرمال وإخراج الطعام إلى المائدة.

وعلى الرغم من انتشار التلفزيونات وأطباق التقاط البث في الواحة، إلا أنها لا تشغل الأمازيغ كثيرا، فمازالت الواحة محتفظة بتقديرها للتواصل الحي وجلسات السم.

السلم المجتمعي، أما ما عداه من أفعال كالثقل، فهي متروكة إلى أجهزة الدولة تاخذ مجراها، ويتابع "لكنها من النوادر". وعادة ما يسري قانون الواحة على الوافدين أيضا، يردد الأهالي ذكر واقعة خروج سيوي على قاهري مستقر في الواحة ليلا في حالة هيجان ليصبيه بقطع في يده.

فكر الثاني في الذهاب إلى قسم الشرطة، لكن المحيطين به نصحوه بعرض الواقعة على شيخ القبيلة، فحكم الأخير سريعا بتعويض قدره ألفي جنيه (نحو 150 دولار).

عادات معيشية

للأمازيغ عادات خاصة في الملابس والمائل صيغتها تكويناتهم الصحراوية وقربهم من الأراضي الليبية، فهم يرتدون الجلباب كزي رسمي لا يُخلع سوى في المدارس للطلاب، وكافة الأعمال الأخرى بما في ذلك المصانع والبنوك. والعائلة الأمازيغية كبيرة نسبيا، بمتوسط 6 أفراد، غير معنية بتنظيم النسل، فهي تعتبر أن التناسل في صالح الأقلية، وتتباهى بالزيادة العددية في الواحة.

وتقبل الفتيات والشباب على المدارس الأساسية، كي يتمكنوا من تعلم القراءة والكتابة، وكلما تقدمت المرحلة تقل فرص الفتيات لاستكمال تعليمهن.

وللمعمار الأمازيغي نسق خاص، لكنه أخذ في الاندثار لصالح المباني الإسمنتية التقليدية، ومعمارهم يعتمد أحجارا خاصة تعد بخليط من مواد عديدة، بحيث تحافظ على رطوبة المنزل في الصيف الشديد الحرارة في الواحة، وتوفر الدفء في الشتاء القارس.

ويلفت أحد العاملين في المعمار بالواحة، واسمه أحمد إبراهيم، إلى أن غالبية أهالي الواحة لم يعد في مقدراتهم المادية البناء على الطريقة التراثية، فشيديون البيوت الجديدة بالطوب الطلي توفيراً للنفقات.



وجبة المرمد للأعياد والضيوف

قديما 4 شوارع رئيسية في الواحة طيلة حياته، وشب المراهق والغار بلاهقه، لا يستطيع أن يكسر عقابه، نسي أقرانه فيما ظل هو متذكرا عقابه، فبستأنزهم في المغامرة كلما أقبلوا على المشي في أي من شوارعهم المحرمة، ومن ضمنها شارع جبل الذكرو الذي يشهد عيدا أمازيغيا يسمى "عيد الصلح" في أكتوبر من كل عام.

ويقول يوسف "في العيد الأخير، ترجماني صدقناؤه للعفو عنه وطلب العفو من شيخ القبيلة، كي يتمكن من مواصلة حياته على نحو طبيعي، بعدما رده العقاب، وبات بشهادة الجميع محل ثقة واعتدال".

ويترك التجار بضائعهم معلقة في الشوارع ومرصوفة على الطرقات خلال فترة القبول التي يعود فيها السكان إلى منازلهم لتناول وجبة الغداء، دون أن يخشى أحدهم من السرعة، في ظاهرة غريبة ولافتة.

وتحيل واقعة السرقة والحكم الرادع للقبيلة إلى سمة أساسية لأقلية الأمازيغ، وهي التحكيم العرقي، وهو نظام يُتبع بتغيرات طفيفة في المجتمعات القبلية، من سيناء شمال شرق القاهرة حتى حلايب وشلاتين جنوبا.

ويسري نظام التحكيم العرقي لدى الأقلية الأمازيغية في مجلس يترأسه شيخ القبيلة (منصب رسمي ويأخذ صاحبه راتبا من الدولة) ويشارك في عضويته 10 آخرون يمثلون وجهاء القبيلة وكبارها، يتداولون في ما بينهم للبت في أي مشكلة تخص القبيلة نفسها، ويصدرون الحكم الغير قابل للمراجعة. وفي حال تدخل أكثر من قبيلة في المشكلة لا يحق لمجلس واحد البت فيها، بل تجتمع تلك المجالس بمسايخها لدى أحدهم أو في أرض محايدة لنظر الأمر، ولم تُسجل واقعة في الواحة فشل فيها التحكيم العرقي.

ويشير الدليل السيوي جمال الريان إلى أن التحكيم العرقي لا يتعارض مع القانون، موضحا أنه يدور في فلك ضبط

من واحدة للحفاظ على المجتمع دون تهجين. وتكمن خطورة تهجين الأسرة الأمازيغية في انعكاسها على الهوية، فيخشي الأمازيغ تأثيراتها السلبية بداية من اللغة وحتى الرضوخ إلى الأحكام والعادات الأمازيغية، خصوصا إذا كان الزوج أمازيغيا والزوجة من خارجها، وقتها لن تصبح اللغة الواحدة هي السائدة داخل المنزل، وسيتشأ الطفل أمازيغي العرق عربي اللسان.

ويراهن رجال الأعمال الأمازيغ على حفظ هويتهم رغم الانفتاح، معولين على الانتماء المغروس في نفوسهم منذ الطفولة. ويعتبر يوسف أن شعور الانتماء الراسخ في نفوس الأمازيغ هو الحصانة، قائلا "هذا الانتماء يجعل الأمازيغي يعود دائما لأرضه رغم صولاته وجولاته للتعلم أو العمل، ولذلك لا ترفض السفارات منح تأشيراتنا للأمازيغي، فهي تعلم أننا لا نهرج أرضنا".

أحكام القبيلة

يؤكد يوسف على أصالة المجتمع الأمازيغي بحفاظه على قيمة حتى الآن، رغم أن البيئة وتغيرها قد نالا من قيم وتقاليدها قوميته أخرى.

ويسمى يوسف صفة "الأمانة" كعنوان رئيسي لأقليتهم، واصفا خيانة الأمانة والسرقة بالكبائر، لافتا لصحيفة "العرب" إلى واقعة مراهق سرق من سائح في فندقه قبل نحو 6 أعوام بعض أغراضه، فناله عقاب بدني شديد حتى توسط السائح المسروق للعفو عنه، لكن القبيلة لا تعفو في حقها، وحكم شيخ القبيلة على هذا الشاب بالالتصا



وجبة المرمد للأعياد والضيوف

من واحدة للحفاظ على المجتمع دون تهجين. وتكمن خطورة تهجين الأسرة الأمازيغية في انعكاسها على الهوية، فيخشي الأمازيغ تأثيراتها السلبية بداية من اللغة وحتى الرضوخ إلى الأحكام والعادات الأمازيغية، خصوصا إذا كان الزوج أمازيغيا والزوجة من خارجها، وقتها لن تصبح اللغة الواحدة هي السائدة داخل المنزل، وسيتشأ الطفل أمازيغي العرق عربي اللسان.

ويراهن رجال الأعمال الأمازيغ على حفظ هويتهم رغم الانفتاح، معولين على الانتماء المغروس في نفوسهم منذ الطفولة. ويعتبر يوسف أن شعور الانتماء الراسخ في نفوس الأمازيغ هو الحصانة، قائلا "هذا الانتماء يجعل الأمازيغي يعود دائما لأرضه رغم صولاته وجولاته للتعلم أو العمل، ولذلك لا ترفض السفارات منح تأشيراتنا للأمازيغي، فهي تعلم أننا لا نهرج أرضنا".

أحكام القبيلة

يؤكد يوسف على أصالة المجتمع الأمازيغي بحفاظه على قيمة حتى الآن، رغم أن البيئة وتغيرها قد نالا من قيم وتقاليدها قوميته أخرى.

ويسمى يوسف صفة "الأمانة" كعنوان رئيسي لأقليتهم، واصفا خيانة الأمانة والسرقة بالكبائر، لافتا لصحيفة "العرب" إلى واقعة مراهق سرق من سائح في فندقه قبل نحو 6 أعوام بعض أغراضه، فناله عقاب بدني شديد حتى توسط السائح المسروق للعفو عنه، لكن القبيلة لا تعفو في حقها، وحكم شيخ القبيلة على هذا الشاب بالالتصا

